مجلة المجمع العلمي

مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد السادس والخمسون

بغـــداد

١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

ضرورات القراءة النقدية الجديدة للتاريخ واعادة كتابته في المجال العربي المعاصر

وليد خالد احمد حسن

الملخص :

ان التاريخ له منهجية للوصول الى الحقيقة مثل أي علم آخر . وحقيقة التاريخ تتركز حول جهود الانسان في كل مجتمع لمنجزاته واخطائه ، أي انه علم يحاول الاجابة على الاسئلة المتعلقة بفترة من حياة الشعوب لها امجادها وخطاياها ، فكيف نسمح بترك تاريخنا في ايدي كتّاب يفتقرون الى أبسط مبادىء المنهج العلمي لدراسة تاريخنا ؟

وعليه يتناول البحث ضرورة اعادة قراءة التاريخ الآن ونقد مرويات احداثه ، وفق نظرة علمية موضوعية لا تجاري ما هو راسخ في الذهنية العامة ...

إعادة دراسة التاريخ وكتابته وتصحيح معلوماته ، سمة حضارية للمجتمعات صاحبة الإرادة في البقاء . والصمت عن ذلك في بعض الأحيان لايفيد ، حاله حال نبش الماضي على غير هدى أو تمعن، وفي هذه الحالة تختلط الأوراق بعضها مع بعض ، ويختلط الحابل بالنابل ، وتضيع معالم الحقيقة . ومن حق الأجيال أن تعرف تاريخها لتعد نفسها للمستقبل استنادا إلى خلفية صلبة متماسكة من المعرفة . فالتاريخ ليس بأحداثه فحسب وإنما بالرموز التي صنعت هذه الأحداث وحركت عجلة الزمن .

ضرورات القراءة النقدية الجديدة للتاريخ واعادة كتابته في المجال العربي المعاصر

وليد خالد احمد حسن

الملخص :

ان التاريخ له منهجية للوصول الى الحقيقة مثل أي علم آخر . وحقيقة التاريخ تتركز حول جهود الانسان في كل مجتمع لمنجزاته واخطائه ، أي انه علم يحاول الاجابة على الاسئلة المتعلقة بفترة من حياة الشعوب لها امجادها وخطاياها ، فكيف نسمح بترك تاريخنا في ايدي كتّاب يفتقرون الى أبسط مبادىء المنهج العلمي لدراسة تاريخنا ؟

وعليه يتناول البحث ضرورة اعادة قراءة التاريخ الآن ونقد مرويات احداثه ، وفق نظرة علمية موضوعية لا تجاري ما هو راسخ في الذهنية العامة ...

إعادة دراسة التاريخ وكتابته وتصحيح معلوماته ، سمة حضارية للمجتمعات صاحبة الإرادة في البقاء . والصمت عن ذلك في بعض الأحيان لايفيد ، حاله حال نبش الماضي على غير هدى أو تمعن، وفي هذه الحالة تختلط الأوراق بعضها مع بعض ، ويختلط الحابل بالنابل ، وتضيع معالم الحقيقة . ومن حق الأجيال أن تعرف تاريخها لتعد نفسها للمستقبل استنادا إلى خلفية صلبة متماسكة من المعرفة . فالتاريخ ليس بأحداثه فحسب وإنما بالرموز التي صنعت هذه الأحداث وحركت عجلة الزمن .

الكل يتحدث مفاخرا بقول ابن خلدون ، بأن التاريخ (عبرة) ، ولكن كيف يمكن الاعتبار من الماضي اذا توقفنا عند الايجابي منه فقط ؟ وكيف يمكن ان ننظر الى الرموز التاريخيين ، من منظور القداسة فقط ؟

برزت مؤخرا كتابات تاريخية تُجاري في اغلب الاحيان ما هو مستشاع في الذهنية العامة ، فقد تجنب اغلب المؤرخين العرب الخوض في بعض المواضيع التي تبدو حساسة ، وانتشرت النظرة التقديسية للماضي ، ما ادى الى تحنيطه وجعله غير قابل في بعض الاحيان للأنفتاح على المناهج الجديدة ، كتلك التي تقدمها المنهجيات الحديثة في الكتابة التاريخية . وهو ماجعل مسألة تحديث هذه الكتابة ، من الامور الصعبة كلما تعلق الامر بالمسائل ذات الصلة بما وقع تقديسه .

ونلقى هذه المسألة مقاومة شرسة وجاهلة في كل الحالات . وبقدر ما كان تاريخنا عنيا وغامضا ، كان المؤرخون في وطننا العربي يتظللون بصفحاته الناصعة ، ويمرغون اقلامهم بالزبد الظاهر ، ويقفون منه على الربى والنتوءات ، ويحجمون عن الغوص في قداسة مصنوعة ، ويخافون من الكلام فيستظلون بظله . ولايزال العديد من المواضيع تنتظر الظرف السياسي المنفتح لتشرع ابوابها[1] .

وعلى هذا الأساس تزداد الحماسة الآن في أغلب دول العالم لإعادة دراسة التاريخ وكتابته بصورة غير أحادية تشير الى المزايا والعيوب ،

---

[1] جاك لوغوف ــ التاريخ الجديد ، ترجمة ــ محمد الظاهر المنصوري ، ط ١ ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص ٢١ و٢٢ .

وعلى ما يبدو أن تصوير الأحداث الراهنة قد أصبح يستلزم قدراً كبيراً من تصوير وإعادة تصوير الأحداث الماضية.

ـ فهل يعني ذلك أن عالمنا العربي يشهد تحولات كبرى في الأفكار والنظم السائدة والموروثة مما يفرض البحث في الجذور التاريخية لها لترسيخ الصالح واقتلاع الطالح وتشذيب الحقل لبناء المستقبل ؟

ـ وهل يعني توازي الاهتمام بالتاريخ في العراق الآن، مع الاهتمام به في العالم ككل، أن العراقيين يشكلون جزءا من عالمهم حتى إذا اتخذ الاهتمام بالتاريخ عندهم شكل التنقيب عن الخصوصية ؟

ـ وهل يعني الصراع حول التاريخ في العراق نوعا من الحيوية المرتبطة بحيوية الصراع السياسي الأشمل في ظل التعددية السياسية المعمول بها الآن ، كما يعني في الوقت نفسه استغراق بعضهم في الصراع إلى حد تجاوز الحيوية إلى العربدة وإلى حد السلفية على حساب الرؤية المستقبلية ؟

ـ وهل يكون من الصحيح الالتفات الى الدراسة العلمية لمنهج كتابة التاريخ بحثا عن درجة أعلى من الموضوعية ، كما يكون من الصحيح البحث عن منطق سياسي رشيد يميز بين استخدام التاريخ في السياسة وسوء استخدام التاريخ فيها . كما يميز بين استحضار الماضي كوقود للقفز إلى المستقبل والذهاب الى الماضي كمهرب من الحركة نحو المستقبل ، وهو بالتالي ما يميز بين من فهموا القصد من وراء الدعوة الى قراءة التاريخ وإعادة كتابته ، ومن أساءوا الفهم استكمالا لإساءتهم الى أنفسهم ومنافسيهم وبلدهم في تاريخها وحاضرها ومستقبلها ؟

بعدما تقدم ، هل يتضح أن الجدل حول قراءة التاريخ وإعادة كتابته هي التي تمتد في سائر أرجاء المعمورة ، وأن تصوير الأحداث الراهنة قد أصبح يستلزم قدرا كبيرا من تصوير الأحداث الماضية وإعادة تصويرها ؟ وهل يتأكد أن الأمر لا يعنينا وحدنا نحن العراقيين بقدر ما يعني الآخرين خارج عالمنا العراقي وداخل عالمنا الإنساني ؟ وهل لا تبقى بعد ذلك غرابة في أن تشهد بلداننا أخرى جدلا حادا حول التاريخ بين القوى السياسية المتصارعة ؟ وهل يكون من المفهوم في هذا السياق من تحول ندوة علمية حول منهج كتابة التاريخ إلى بند من بنود الصراع السياسي المتسلح بالتاريخ ؟

ربما جاء الرد على هذه الأسئلة بالإيجاب من قبل غالبية المعنيين بالإجابة ، لكن تبقى مع ذلك تساؤلات أخرى لا تكتمل الصورة بدونها .

إن المأمول بالنسبة للبشر أن تكون أبصارهم وبصائرهم قادرة على الالتقاط الحساس للعبر التاريخية .

جدوى التاريخ وإدراك الحقيقة الموضوعية

التاريخ علم كبقية العلوم ، يدرس ظواهر موضوعية حدثت بمعزل عن نفس المورخ وفكره ومشاعره وبشكل مستقل عن أرادته ورغباته وبفعل قوانين وظروف فرضها واقع الحياة والطبيعة والمجتمع . فشأن علم التاريخ شأن العلوم الأخرى ... يعني بدراسة ظواهر مستقلة عن الدارس الذي يحاول بما لديه من وسائل الإطلاع ، إدراك الظاهرة وفهمها بالشكل الذي حدثت فيه فعلا . وهذا المفهوم العلمي للتاريخ يقوم على أساس نظرة فلسفية علمية تؤمن بوجود الحقيقية الموضوعية خارج الفكر البشري بشكل

معين يسعى الباحث الى معرفته وإدراك كنهه ، ولا يؤثر عدم ادارك الفكر البشري لهذه الحقيقة في وجودها أو تبديلها .

إن تاريخ المعرفة البشرية كله إنما هو محاولات مستمرة لأدراك الحقائق الموضوعية في مختلف مجالات الحياة والطبيعة واستنباط القوانين التي تتحكم في مسيرة الحياة البشرية واختبارها في ميدان الممارسة والتطبيق للتأكد من صوابها وصحتها ، حتى يتم تسخيرها لخدمة الإنسان وتحقيق إغراضه ، ولا يمكن أن يخرج علم التاريخ عن هذا الإطار لأنه يعني بادراك مسيرة المجتمعات البشرية وفهمها في مختلف الأزمات والأمكنة . وهذه النظرة العلمية للحقيقة الموضوعية هي النقيض للنظرات اللاعلمية للطبيعة والمجتمع التي تعتقد بأن لا وجود مطلقا للحقيقة الموضوعية ، وأن الحقيقة نسبية وان الشيء ونقيضه قد يكونان كلاهما صحيحين في آن واحد انطلاقا من كون ما يسمى حقيقة إنما هو مجرد تصور لا وجود له خارج الفكر الإنساني .

إننا في الوقت الذي نعتقد فيه أن التصورات الذهنية للحقائق الموضوعية هي نسبية قد تصيب وقد تخطئ ، فأن ذلك لا يمكن أن ينفي أن للحقيقة الموضوعية خارج الفكر الإنساني ــ في المكان عينه واللحظة ذاتها ــ شكلا محددا ، قد يقترب أو يبتعد من التصورات الذهنية التي يكونها الإنسان عنها . كذلك الأمر بالنسبة للإحداث التاريخية ، فأن تصوراتنا الخاطئة لا يعني عدم حدوثها بشكل معين .

وللتاريخ كما هو حال كل علم من العلوم الأخرى خصائصه التي تميزه عن هذه العلوم وتزيد من صعوبة تكوين صور ذهنية دقيقة وكاملة

عن الظواهر التاريخية وقوانينها وربما كانت هذه الخصائص هي التي أثارت في الماضي كثيرا من النقاش حول موضوع علمية التاريخ والذي نعتقد أن الزمن قد تجاوزه فلا مجال للشك الآن في أن التاريخ علم كبقية العلوم وان الوصول إلى الحقائق التاريخية لابد من أن يكون بالأساليب والطرق العلمية شأنه شأن العلوم الأخرى .

وأهم خصائص علم التاريخ انه يتناول موضوعات معقدة غاية التعقيد ، هي المجتمعات البشرية التي تتداخل في تحديد مسيرتها عوامل كثيرة تمتد من الظروف الطبيعة والجغرافية وتنتهي بالتركيب الإنساني البيولوجي والنفسي المعقد مارة بكل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها . إن التأثير المعقد لكل هذه العوامل في مسيرة حياة البشر يجعل من العسر الوصول إلى إدراك كامل وتفهم حقيقي عميق للحقائق التاريخية .

وفضلا عن ذلك ، فإن علم التاريخ يتميز بأنه يعنى بالبحث عن ظواهر تفصل بيننا وبينها حقب طويلة من الزمن قد لا تكون مصادر معرفتها من مختلف جوانبها كافية ومتيسرة ، لذا فأن إدراكنا الحقائق التاريخية يبقى ناقصا ومحدودا في غالب الأحيان .

وفوق كل هذا وذاك فأن الظواهر التاريخية تحدث في ظروف موضوعية لا يمكن تكرارها مطلقا بشكلها الدقيق ، لذا فان من العسير التأكد من النظريات التاريخية بإعادة خلق ظروفها . أن كل ذلك ، فضلا عن تدخل النعرات الخاصة والمواقف الذاتية والابتعاد عن الأسلوب العلمي في فهم التاريخ وفي كتابته ، أدى إلى تشويه التاريخ وتزييف حقائقه وجعله

أداة في أيدي النظام السياسي أو القوى الفاعلة في المجتمع والقوى الاستعمارية لتحقيق إغراضها وخدمة مصالحها وفرض سيادتها .

من هنا ، أدعو إلى ضرورة تصحيح فهم " إعادة قراءة التاريخ وكتابته " ولاسيما تاريخنا العراقي بشكل جديد لا يهدف إلى تحوير الحقائق التاريخية وتزييفها لخدمة إغراضنا وتحقيق أهدافنا كما فعل كثير غيرنا في السابق وإنما يستهدف رفع التزييف والتحريف عن كثير من حوادث عراقنا وكفاحات شعبنا وكشف حقائقها التي تجاهلها المغرضون ولم يستطع الوصول إليها من سبقنا من المؤرخين .

ومهمة إعادة كتابة التاريخ ليست بالبساطة التي تبدو أوّل وهلة بل هي مهمة شاقة صعبة تحتاج إلى الكثير من الجهد والدأب والنظرة العلمية الواسعة والفكر الدقيق ، وهي لاتهدف إلى إعادة ما درس حتى الوقت الحاضر بأسلوب علمي رصين فحسب وإنما إلى كشف الستار عن جوانب حيوية أساسية جديدة في تاريخ عراقنا ، وتوجيه اهتمام المؤرخين إلى ميادين جديدة في البحث التاريخي حال إهمالها من قبل الباحثين .

للأسف الشديد هناك ثمة فهم معين يسود بعض الفئات المثقفة العراقية وحتى العربية ، وهو أن إعادة قراءة التاريخ وكتابته تعني بالضرورة تسييس التاريخ بان يكتب الماضي على وفق رغبة هذا النظام السياسي أو ذاك وان يسلط الضوء على ما يلائم الذوق السياسي السائد وان يترك ما يجانبه وان تطرح من التفسيرات ماتخدم أفكاره وآراءه . وساعد على هذا الفهم أن هذه الدعوة ارتفعت أولا من أقطار عربية ذات مواقف عقائدية محددة أو إنها كانت تدعو إلى إصلاح اجتماعي شامل ، ففسر الأمر وكأن

التاريخ في حاجة إلى إصلاح من النظام ، كما يمكن أن تصلح جوانب أو أجهزة في المجتمع .

والغريب أن نفرا من المعنيين بالتاريخ ومن المؤرخين أنفسهم ، فهموا الأمر على هذا النحو بل شرعوا يبررونه تبريرات سياسية هي الأخرى بعيدة عن الواقع . وفي الحقيقة ليس شيء اخطر على التاريخ وكتابته من هذا الفهم المضلل ، فليس معنى إعادة قراءة التاريخ و كتابته أن تتدخل السياسة في التاريخ وإنما العكس تماما ، انه بالضبط تخليص التاريخ من آثار السياسة ونوازعها .

وإذا كان التاريخ بحسب المقولة المعروفة هو سياسة الماضي فان القول بان كتابته كانت معرضة دائما للتأثير بنوازعها ومصالحها يعد قولا صحيحا تماما ، وإذا ردنا على ذلك أن المجتمع كان قد فقد أداته السياسية المستقلة بانهيار نظمه السياسية منذ عهد بعيد سبق من حيث الواقع الغزو المغولي نفسه فان تاريخ المجتمع يكون قد كتب على وفق سياسات لا تمت له بصلة وإنما هي سياسات الدول الأجنبية الغازية ، شرقية كانت أو غربية ، بمعنى أن النوازع السياسية لأولئك جميعا تدخلت في تاريخ مجتمعنا وقدمت وجهات نظرها في تفسير أحداثه وإلا فمن ينكر أن أصحاب الإسرائيليات والكتّاب الفرس والمستشرقين المغرضين كتبوا جميعا على وفق مصالحهم السياسية من دون مصلحة مجتمعنا ذاتها وكنا نشاهد تلك الرؤى والتفسيرات تتسلل إلى كتابات مؤرخين عراقيين وعرب من دون تدقيق كاف وموقف محدد ، فإذا ما سئل أحدهم في ذلك كان الجواب الدائم ــ أنه ورد في التاريخ هكذا ــ ناسيا أن هذا التاريخ نفسه

كان تاريخا منسيا أدت فيه السياسة ما شاءت وولفت فيه بأهوائها ومصالحها ما ولفت .

على الرغم من الحديث عن إعادة قراءة التاريخ وكتابته قد بدأ عربيا عقد الخمسينيات وعراقيا منذ عقد السبعينيات ، ألا أن خطوات جادة لم تؤخذ في هذا السبيل . ولعل اخطر البوادر التي ظهرت في هذا المجال وأكثرها سلبية هو أن هذا الموضوع أصبح مادة صحفية أكثر منه مادة علمية جامعية . إذ أن إعادة كتابة التاريخ بشكله العلمي السليم إنما تقع أولا وأخرا على عاتق العلماء الجامعيين ذوي المعرفة الواسعة والاختصاص العميق وليست على عاتق الهواة ومحترفي الصحافة الذي يتوهمون في أنفسهم القدرة على الكتابة في أي موضوع يرون من المفيد الخوض فيه . وهكذا ضُغت على صفحات الجرائد والمجلات أراء مجانية رخيصة كل ما يميزها إنها بعيدة عن العلمية ومفتقرة إلى النظرة الشاملة والإطلاع الواسع والمعرفة الدقيقة بالموضوعات التاريخية المطروحة للبحث .

وبدأ المتطفلون على التاريخ بمجرد قراءتهم كتابا أو كتابين بل بدون ذلك يطرحون الآراء الحاسمة في اخطر قضايا التاريخ ، مجردين الإحداث التاريخية من أطرها الموضوعية وظروفها الخاصة ومحاولين حشرها في قوالب لا تمت لها بصلة .

ليس هنالك من شك في أن تاريخنا كان ضحية النظم الحاكمة وبعض القوى السياسية الفاعلة ناهيك عن المستشرقين ومن تابعهم في طمس كثير من معالمه الحضارية والتقليل من شانه وإنكار دوره الحضاري ، ولكنه كان دون شك وبشكل أوسع ضحية بعض أبناء هذه الزمرة من الباحثين

الذين فقدوا النظرة العلمية وأعماهم التعصب والجمود فمسحوا التاريخ وطمسوا كثيرا من صفحاته وقلبوه إلى حكايات وقصص أشبه بالأساطير عن حياة الملوك ومؤامرات الوجهاء والأمراء مهملين مآثر الشعوب وتعلقها بالحرية والعدالة والمعرفة وما قدمته من تضحيات في هذا السبيل .. أن كل ذلك يجعل من إعادة قراءة التاريخ وكتابته حاجة ملحة وضرورة ماسة ينبغي الاهتمام بها ومعالجتها المجدية والأساليب الناجعة التي تأخذ بعين الاعتبار جملة من الأمور تأتي في مقدمتها :-

١- الالتزام بالاساليب العلمية والحرص على الحقيقة الموضوعية وجعلها هدفا أساسيا في البحث والكتابة التاريخية .

٢- الاعتماد على الاختصاصيين وعلماء التاريخ الجامعيين ذوي الاطلاع الواسع والنظرة العلمية المعاصرة وحمايتهم من الجهلة والمتطفلين على البحوث التاريخية وتهيئة جميع الظروف الملائمة لهم للقيام بجهدهم العلمي وفي مقدمة هذه الظروف الوقت الكافي والحرية الكاملة في الاطلاع والتعبير .

٣- الاهتمام بتاريخ شعبنا ونشاطه الحضاري والاجتماعي باعتبار أن التاريخ إنما تصنعه الشعوب وليس الأفراد والاهتمام بالأبطال الذين جسدوا أماني شعبهم وتطلعاته وعبروا عنه خير تعبير .

٤- إبراز التقاليد والقيم الإنسانية لشعبنا وتتبع كفاحاته وإبرازها من اجل الحرية والعدالة ضد الظلم والاستغلال والتعسف وإبراز حركاته الثورية التي مثلت هذه التقاليد .

٥- تجنب الفخ الذي تنصبه بعض مراكز الأبحاث الأجنبية باعتبار الحركات

الثورية التي قام بها شعبنا خروجا على الشرعية التي يمثلها في رأسهم الملوك والرؤساء ، وانكار شرعية هذه الحركات ضد التعسف والظلم والاستغلال تحت مختلف المبررات . وتمييز القادة الذين اكتسبوا شرعية القيادة من استبسالهم في الدفاع عن استقلال الوطن وكرامته وشرفه وتمثيل مصالحه وتبني أهدافه وأمانيه .

٦- إبراز حيوية شعبنا المتمثلة في نشاطه الحضاري وحركاته الفكرية ووضع تلك الحركات في إطار الظروف الموضوعية التي حدثت فيها وعدم ربطها بمفاهيم معاصرة منبثقة من ظروف خاصة لا علاقة لها بالظروف التي انبثقت منها تلك الحركات .

٧- إبراز الجوانب المشرقة في تاريخنا من دون أن يعني ذلك إنكار الجوانب المظلمة والكبوات التي تعرضنا لها بل وضعها في أطرها الموضوعية وربطها بأسبابها الحقيقية بموضوعية وعلمية تامتين .

٨- إبراز القيم الإنسانية التي تحلى بها شعبنا وبُعده عن الشوفينية والعنصرية والاحقاد القومية والدينية والطائفية ، كل ذلك من دون تجاوز الموضوعية العلمية والحقائق التاريخية .

٩- الانفتاح على التيارات العلمية في دراسة التاريخ وكتابته في العالم اجمع والإفـادة من خلاصة مـا أنتجته البشرية عن الأفكـار والنظريات في هذا المجال .

١٠- وضع الخطط العلمية لنقل الآراء والأفكار التي تطرح وتقر إلى ميدان الممارسة والتطبيق وتنظيم الجهود من اجل إنجاز دراسة تاريخية موسوعية يأتي في مقدمتها كتاب مفصل عن تاريخ وطننا العراق مهد

الحضارات منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، الذي يمكن أن يملأ فراغا لاتزال مكتبتنا تشكو منه بشكل صارخ . وربما كان من الضروري لتحقيق ذلك تشكيل هيئة دائمة لوضع الخطط اللازمة لإعادة قراءة التاريخ وكتابته والإشراف على تنفيذها وتوفير الظروف الملائمة للعمل الجدي السريع في هذا المجال وحماية حرية المؤرخين من المتطفلين والداعين إلى قولبة التاريخ وإخضاعه إلى المتطلبات الدعائية الساذجة والاعتبارات السياسية والاجتماعية العابرة وإلا فإننا قد نسيء إلى التاريخ أكثر مما نقدم له من خدمة .

إن مهمة المؤرخ والتراثي العراقي والعربي اليوم هي تنقية التاريخ من آثار هذه الأهواء والمصالح ، أي انه يخلصه من شوائب الدخلاء ، وأن يُنظر إليه نظرة ذاتية بصفته جزءا منه متحدا معه وموضوعية باعتباره جزءا من التاريخ الإنساني كله .

إن تاريخنا الوطني والقومي في حاجة الى أن يُكتب على وفق نظرة جديدة مستقلة بأن نُطهره من آثار المتغلبين ومن تفسيرات أصحاب الأهواء من المستعمرين ومن يرتبط بهم من مستشرقين وأصحاب مدارس معينة ونمعن النظر فيه في صفاء واندماج لنستلهم روحه النقية ، ولنتواصل مع حيويته وديمومته .

سجال الاسلامي / القومي والجدل مع الآخر المختلف

إن لكل مجتمع تاريخ ، ومهما تفاوتت الزمنية والأعمال الإبداعية والبطولية لتاريخ كل مجتمع ، فان الاعتزاز بهذا التاريخ يصل أحيانا إلى حد التطرف وخصوصا عند بعض المجتمعات الحديثة التكوين والتاريخ .

والسبب ينبع من حقيقة هامة وهي إن التاريخ من أهم مقومات الشخصية ، شخصية الفرد وشخصية المجتمع .

فالمؤرخون يعتبرون التاريخ بمثابة الذاكرة الوطنية للمجتمعات وحاجة الأفراد إلى التاريخ لا يقل عن حاجاتهم إلى ذاكرة ، والنتائج المترتبة على فقدان التاريخ أو تشويهه أو إخضاعه للأهواء والأحقاد اخطر بكثير من فقدان الذاكرة عند الأفراد بسبب الآثار السلبية الواسعة النطاق المترتبة على ذلك.

إن الفهم الصحيح للتاريخ والاعتزاز بتراثه يساعد على البناء والتقدم ومواجهة التحديات بروح فعالة وحماية أفراد كل مجتمع من الذوبان في المجتمعات الأخرى أو فقدان القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب او الاندفاع نحو التطرف والإرهاب .

لقد شهد الثلث الأخير من القرن العشرين تهافتا محموما في العديد من الأقطار العربية على فكرة إعادة قراءة تاريخنا وكتابته ، فيما توالدت هذه الدعوات تترى حتى الساعة عبر العديد من حواضرنا وبطرائق وتسميات مختلفة من نوع (قراءات جديدة) أو (مراجعات تقدمية) أو (ارتدادات معاصرة) إلى التاريخ العربي الإسلامي بخاصة ، ثم ما لبثت هذه الحملة وان أخذت لبوسا متنوعا وأشكالا مختلفة تبعا لطبيعة بواعث الارتداد إلى الماضي من اجل تحقيق أهداف لا تقل تنوعا واختلافا عن الدوافع ... بيد إن هذا الموضوع الشائك والماثل أمامنا لابد أن يستدعي الرصد والملاحظة على سبيل تحليل ارهاصات العودة الى الماضي وأسباب إنشائها في عالم يتجه نحو العولمة وباتجاه طي صفحات الماضي في سبيل إضاءة الحاضر

واستشراف المستقبل على نحو منقطع إلى حد كبير عن تربة التاريخ[٢] .

إن مناقشة هذا الموضوع الرائج في اغلب أقطارنا العربية ، ولاسيما خلال هذه المرحلة ، تقودنا إلى ملاحظة حقيقية مهمة ، وهي إن واقعية الاهتمام العربي وبواعثه ، ولاسيما المشرقي ، إنما تعبر عن حالة اللايقين التي يعانيها الانسان العربي المثقف على نحو خاص . فإذا ما كان الحاضر صعب المراس وعصيا على الفهم والإدراك بشكل واضح يكون المستقبل أكثر غموضا وسببا للخوف والقلق ، الأمر الذي يجعل من الماضي الأساس الوحيد المتاح للتيقن ولإعادة الثقة بالذات وبالقدرة على التوليد والتجدد . لذا كان التمسك بتقديس الأسلاف وبقصة الماضي القومي بالنسبة للعديد من المفكرين العرب من علامات العجز عن إدراك الحاضر والخوف من استشراف المستقبل[٣] .

ان هذا الجدل المبسط يقود المتابع إلى إن الملاحظة الأولى التي تستحق الاستذكار في هذا السياق هي ان مجموعة أفكار وأدبيات ما يعرف بالنهضة العربية الحديثة كانت تاريخية المنشأ والتأطير ، درجة ان اساطين هذه النهضة لا تخلو خطاباتهم الفكرية والتأسيسية من البعد التاريخي المبتنى على فكرة الاستحضار من اجل التفاخر والبرهنة على إمكانية إحياء هذا الماضي العريق لبناء مستقبل عربي أو إسلامي مشرق . ثم ما

---

[٢] محمد الدعمي ــ اعادة كتابة التاريخ: لماذا ، كيف ؟ جريدة الزمان (لندن/بغداد)، عدد ٢٠٠٦/٤/٢٧.

[٣] محمد الدعمي ــ في اعادة كتابة التاريخ ثانية، جريدة الزمان (لندن/ بغداد)، عدد ٢٠٠٦/٥/١١.

لبث هذا النوع الملائم نسبيا من الارتداد الى الماضي سالكا منحنيات مختلفة ومتناقضة أحيانا . وخير دليل على ذلك انشطار نخب استلهام الماضي إلى أربع فرق رئيسة هي :

١. دعاة البعد الديني الإسلامي .

٢. دعاة البعد القومي .

٣. دعاة البعد الاممي الذي استورد أفكاره عبر الحدود العربية من قراءات ماركس وهيغل وانجلز للتطور التاريخي حسب نظرية الديالكتيك المادي .

٤. دعاة الانغماسية التي ترتسم بمياه العقلانية والتجريبية التي ميزت العقل الغربي عبر القرون الماضية على سبيل استعارة أدوات تفكير هذا العقل وآلياته من اجل تطبيقها على التاريخ العربي الإسلامي ، عسى أن تستنبط دلالات جديدة ويتحقق توظيف أفضل وأكثر فاعلية لهذا التاريخ[٤] .

نقول :- إذا كان الاسلاميون قد استحالوا وتحولوا عبر منعطفات فكرية عديدة كي تستقر بهم الحال على فكرة التجديد وتطهير الحياة الإسلامية مما علق بها من بدع وضلالات وممارسات خاطئة وخرافات في سبيل إطلاق حركات سياسية دينية ... تأسيسا على فكرة (الرابطة الإسلامية) ، فأن القوميين تناحوا إلى تقديس روحية (القوم) المنتمين إلى امة واحدة ، امة آلت إلى التراجع والنكوص عبر قرون الهيمنة الاجنبية وما خلفته من (رجعيات) محلية بحسب مصطلحهم المفضل .

---

[٤] المصدر نفسه .

لقد شكلت هذه المواقف الفكرية المتبلورة في حركات سياسية فاعلة اليوم جوهر الحياة السياسية في اغلب الأقطار العربية ، وبذلك يكون البعد التاريخي حسب المنطق والاستدلال ، الأهم والأكثر قوة في تشكيل حياتنا المعاصرة .

ثمة مدارس / اتجاهات اطلقها كل من التيارين الفكريين (الإسلامي والقومي) في أساليب التعامل مع التاريخ . فبينما يتخذ الإسلاميون موقفا تقديسيا لفترة معينة من تاريخ الأمة (وهم يقصدون الأمة الإسلامية) من اجل استحضاره أساسا للتيقن ونبراس للمستقبل ، يعتمد القوميون موقفا أكثر ميلا الى العلمانية بالرغم من عدم خلوه من البعد التقديسي لتاريخ الأمة (وهم يقصدون العرب . دما وثقافة) على سبيل تطوير استلالي أو انتقائي من تاريخ طويل يمتد إلى أقدم الحضارات الآدمية (باعتبار التواصل القومي العربي) منتقين تلك الصفحات البيض من هذا الماضي بوصفها مناهل لبناء الحاضر وتشكيل المستقبل . وهكذا كانت الحياة السياسية في منطقتنا العربية في أهم مفاصلها من النمط التاريخي ، بمعنى انها عدت التاريخ جدلها وسوغها الجوهري الأساس .

لقد احتك هذان التياران بالذات مع العقل الغربي منذ بواكير ظهورهما ، بل ان بعض تشعباتهما قد جاءت محاكاة لتيارات مماثلة ظهرت في الغرب في اوربة القرن التاسع عشر ، فظهرت لدينا الجمعيات والأحزاب والمنتديات الإسلامية والقومية منتشبة بسرعة في نوع من الفضاء الخالي أو الخواء العقائدي الذي تركنا العثمانيون ضحية له بعد قرون من الاستلاب والاحتلال والتتريك ... لذا

كانت (العربية الفتاة) تمثل صدى لـ (تركيا الفتاة) ، بينما كانت حركات التجديد إلى حد كبير رد فعل مضاد للغزو البريطاني والفرنسي الذي هو الآخر يحمل بدواخله نوعا من الأبعاد التبشيرية على سنوات حملاته الاولى .

واذا كان الفعل الامبراطوري في عصر الكولونياليات الاوربية قد هادن هذا التيار او شجع ذاك حسب المتطلبات السياسية الطارئة والزائلة ... فان النتيجة النهائية ارتكنت الى اثارة الحساسية ولاسيما حساسيات التيارات القطرية المنتشرة في ربوع الوطن العربي . وفي الوقت الذي أخذ فيه العقل الاوربي ، ثم الاوربي / الامريكي يُطلّق التاريخ والماضي بسبب من معطيات الثورة الصناعية والانتقادات التقنية الهائلة حتى عصر الشبكات الرقمية والحواسيب ، فان العقل العربي والمسلم بقي متماسكا الى درجة اتهام هذا العقل من قبل المفكرين الغربيين بوقوعه حبيسا في زنزانة التاريخ ، وهو اتهام لا يخلو من الادانة حسب منظورهم بل ان الثقافة الغربية ما لبثت ان اخذت تستهين بتاريخنا على سبيل الاقلال من شأنه واحالته الى ماضي طللي لا يستحق سوى البقاء جامعيا لغبار الازمان في المتاحف . ثم ما لبثت النخب الثقافية والسياسية الغربية ان اخذت تتعامل مع طرائق معالجتنا على نحو دوني لا يخلو من النظرة العلوية المشحونة بالازدراء[٥] .

---

[٥] انظر:- محمد الدعمي - الاستشراق والاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الاسلامي، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦ .

واذا كان هناك بعض المؤرخين العرب قد تمكنوا من ادوات العقل الغربي ومن توظيف طرائق التفكير والاستنتاج العلمية التي اكتسبوها في المؤسسات الغربية ، فان جهودهم الابداعية والرصينة بقيت حبيسة مراحل معينة ضيقة من تاريخنا الطويل ، فلم تتمكن من قراءة شمولية كاملة لهذا التاريخ المزدحم بالغوامض والزوايا غير المضاءة ، هذه بطبيعة الحال ليست نقيصة او مثلبة ، ولكن هذا لا ينفي انجازهم في تقديم قراءات ناضجة من منظور علمي تقدمي جديد لبعض فصول تاريخ العرب والاسلام . واذا كان هؤلاء قد اثاروا زوابع وصلت الى حد التهديدات ولاسيما من قبل المحافظين التقليديين فانهم نجحوا كذلك في لفت الانظار الى اهمية المنظورات الغربية اللامنتمية لتاريخنا في اغناء فهمنا لتاريخنا العربي (القومي) والديني ، ملاحظين ان ادوات البحث العلمي التي تمخضت عما يسمى بحركة (التاريخ الجديد) تلك التي ساعدت على تخليص اوربا من براثن الاسطوري والخيالي ، يمكن ان تساعدنا على إلقاء ضوء ساطع على (الثقوب السود) المنتشرة في القراءات العربية الكلاسيكية لهذا التاريخ على ايدي القصاصين ثم الشيوخ من المؤرخين .

بيد ان على المرء الاستدراك :- ان الاصالة في عملية استعادة الادوات والاليات الغربية لبحث تاريخنا تتحدد في التوظيف ، العربي الاسلامي ، الاصيل لها وليس في الارتماس بمياه الغربي حد استعارة تواريخ كاملة مكتوبة باقلام غربية كي تعتمد وتسوق ليس على المستوى الثقافي والسياسي العام فحسب ، بل كذلك على المستوى المدرسي حيث يتم تلقين الشبيبة والنشء كل ما افرزه العقل الغربي من خلاصات حول تاريخ

هو ليس بتاريخهم ولاسيما أن العقل الغربي كان هو الاخر يرتكن الى دوافع وارهاصات مصلحية وقومية تنأى بنفسها عن القراءة الحيادية للماضي العربي الاسلامي . صحيح ان المستشرقين قد اضطلعوا بمهمات كبيرة في حقول تحقيق التواريخ العربية والاسلامية وبحثها ، وهم يستحقون الشكر والعرفان على ذلك ، لانهم قاموا بهذه المهمة في عصر مظلم لم تكن فيه ثقافتنا قادرة على انجاز مثل هذه المهمة ، بيد ان على المرء ان يتذكر ان جهود المستشرقين كانت في جميع الاحوال متبيسة نظرة استعلائية فوقية تمسح فضاء الماضي العربي الاسلامي على نحو دوني ولا منتم ، الأمر الذي جعلها عرضة للخلل وللاخطاء المنهجية والمعرفية .

ان من اهم النقاط السلبية التي يستحضرها العقل الغربي ضد طرائق الشرقيين ومنهم المسلمون والعرب ، هي إنهم قد ورثوا تاريخا لا تاريخيا . بمعنى انه خليط من الحقيقة التاريخية والاسطورة ، الأمر الذي يلقي ضياءا من التشكيك على مجمل الحركات السياسية القائمة والفاعلة في الوطن العربي من اجل تسفيهها وإزالة مسوغات وجودها . بل ان هذا الخط في التفكير الغربي يدعي بان تاريخنا نفسه لم يكن سوى واحدة من ثمرات العمل الغربي والبحث الاستشراقي الذي حقق ودرس أهم المصادر التاريخية الإسلامية وأغلبها بعد ان كتبت بأقلام الشيوخ قبل قرون . وبذلك يكون الجوهر التاريخي للثقافة العربية منحة غربية وليس ابداعا عربيا او اسلاميا .

ومع توارد موجات العولمة في عصر القطب الواحد ، أخذت الحضارة الغربية تستثمر التاريخ العربي الإسلامي ذاته ، كما نعرفه وكما قرأناه ، وكما نحاول إعادة كتابته من اجل ادانتنا واستنكار كامل المنظومة الفكرية الإسلامية والعربية (القومية) باعتبار خلوها من فضائل الثقافة الغربية التجريبية العقلانية . وبذلك الديمقراطية التي لا نملك موازيا دقيقا لها في تراثنا هي تهمة تعميمية للإساءة ليس لهذه التيارات السياسية والفكرية الفاعلة في وطننا العربي فحسب ولكن كذلك الإساءة إلى كل التراث والموروث الثقافي القطري / الوطني بوصفه موروثا عقيما ومعرقا لتقدمنا ناهيك عن استحضارات أخرى يراد لها نسف الأسس التاريخية أو الماضوية لمجمل الفكر العربي (القومي) والإسلامي المعاصر .

وباعتبار الامساك الغربي بتاريخنا كنقطة ضعف تكون عملية اعادة قراءته وكتابته من العمليات الصعبة والمعقدة للغاية . ذلك إننا لا نعيد قراءة التاريخ وكتابته من اجل تبرير وراثة عائلة مالكة للعرش ولا نسترجعه بنظرة جديدة من اجل البرهنة على تفوق العنصر العربي على نحو شوفيني ، ولا نعيد قراءته على طريق تحقيق أهداف سياسية مؤقتة ، إنها عمليه تحد واحتكاك لا يمكن أن تجتزأ أو تبتسر من حالة صراع / حوار الحضارات الجارية اليوم على نحو سريع وعنيف أحيانا .. ولنا في القراءة المتحررة من اسقاطات سلبيات الماضي ، القراءة التقدمية الناظرة إلى أمام ... خير بديل ودليل يمكن أن يحمي كينونتنا الثقافية من عواصف العصر التي ستأتي على ثقافتنا إن لم نتداع إلى حفظها وحمايتها .

فهم التاريخ وتجاوز مأزق نهضتنا الحضارية

شغل التاريخ عند العرب جزءا كبيرا من المشروعات البحثية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، في ظاهرة كان اول من دشنها عدد من المستشرقين ضمن اطار اهتمامهم بالبحث العلمي لتاريخ المنطقة العربية والاسلامية ، تبعها بعد ذلك صدور عدد من الدراسات المهمة والمستفيضة لباحثين عرب حاولت تفكيك البنى الثقافية في التاريخ العربي واعادة تجميعها في منظومات معرفية جديدة ومتسقة ، ومع الجهود الكبيرة التي بذلت في هذا الاطار ، مازال السؤال المحوري الذي اتكأت عليه تلك الدراسات مطروحا حتى يومنا هذا .

ـ هل نحن بحاجة الى قراءة جديدة وكتابة جديدة لتاريخنا ، وهل يشكل هذا الامر احدى مستلزمات نهضتنا الحضارية ؟

يرتكز بعض الباحثين في دعوتهم الى اعادة قراءة التاريخ وكتابته ، الى ان عملية التاريخ التقليدي ـ كما مارسها المؤرخون الاوائل ـ للعصور الاسلامية كانت مكتنزة بانحياز عقائدي نافر ، مارسه المؤرخ تجاه بعض اطراف الصراع مما جعله يسعى ـ في غمرة عملية التاريخ ـ الى نصرة مذهب او طائفة او رجالات على خصومهم ، الامر الذي يجعل المؤرخ طرفا في تلك الصراعات المذهبية والسياسية التاريخية لا شخصا محايدا يهدف الى توثيق الحقيقة على حساب من كانت .

ان كتب التاريخ الاسلامي هي تؤرخ للامم والملوك كتبها المنتصرون وضاعت فيها هموم المجتمع وحياة الناس ومشاعر الانسان ، تاريخ سردي ، جزئي ، يهتم بالتفاصيل الدقيقة من دون ان يربطها باتجاهات

فكرية كبرى ، يفتقر الى التحليل والقراءة المعرفية الموضوعية بادوات علمية جديدة تستحضر علم الاجتماع السياسي والتحليل النفسي والدوافع القبلية والمادية والنزعات العرقية ، وتحفر في البنية الداخلية للشخوص والمجتمع والثقافة وتربطها بالمنظومات المعرفية الكبرى السائدة في تلك المجتمعات ، لا التقليدي .

ان اعادة قراءة التاريخ تغدو ضرورة اذا ما اراد المجتمع العربي تجاوز مأزق التقدم بعد ان اخفق في اللحاق بركبه ، كون المجتمع العربي الحديث هو في كثير من تشكلاته ، امتداد طبيعي لصراعات التاريخ حيث مازال كثير من التيارات السياسية الجماهيرية ــ الاسلامية بالذات ــ غارقة في سجالات تاريخية حول التراث الفقهي والسياسي الذي تكون في التاريخ الاسلامي ضمن سياقات بدا كثير منها خجولا ، في حين بدت هذه السجالات والتراث السياسي هو المحك الحقيقي والمرجعية المعتبرة في قضايا العلاقة مع المخالف الفكري وفي التعامل مع غير المسلم ، وفي علاقة الدولة الاسلامية بالعالم المحيط[٦] .

من هنا غدت عملية اعادة قراءة التاريخ وكتابته ضرورة ملحة لأظهار انحيازاته وسياقاته ، ونزع القداسة عنه وابراز الدوافع السياسية والاجتماعية والعرقية لكثير من التشظيات المذهبية والصراعات الدينية .

---

[٦] نواف القديمي ــ الاسلاميون : سجال الهوية والنهضة ، مقاربات في الفكر والممارسة ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت / الدار البيضاء ، ٢٠٠٨ ، ص١٦٣ .

ان النهضة الحضارية تستلزم ان تقف على ارضية تاريخية صلبة كي تنطلق الى المستقبل الرحب بخطى واثقة حاملة معها اداة نقدية موضوعية تستطيع بها تجاوز تقديس التراث وتقبيح القادم من الاخر .

لكن بعضهم الاخر يرى ان هناك عشرات الكتب التراثية الراصدة للتاريخ الاسلامي كثير منها على قدر عال من الحياد والموضوعية في نقل الاخبار والمواقف بلا انحياز وانشغال بركام الصراعات التاريخية .

كما ان القراءات الجديدة للتاريخ الاسلامي التي صدرت خلال القرن الماضي التي يزعم اصحابها انها تمارس قراءة التاريخ بادوات جديدة هي في حقيقتها مؤدلجة او ينحاز مؤلفوها الى نتائج واتجاهات مسبقة قبل الشروع في عملية البحث العلمي ، فالماركسي يُقرب بحثه باتجاه النزعات المادية في هذا التاريخ ، والعقلاني يكرس جهوده لتلميع المدرسة العقلية والاعتزال والفلاسفة البرهانيين ، والليبرالي يسلط الضوء على تراث الاستبداد والتسلط رغبة في تجاوز هذه الحقبة ، حتى بدا السعي الدؤوب لكل طرف سعيا لجذب وابراز واضاءة مناطق وازمنة من التاريخ يخدم بها اتجاهاته الفكرية والسياسية[٢] .

هناك من يرى الموضوع من اتجاه اخر يرتكز على ان افراغ جهوده العلمية كبيرة في عملية اعادة قراءة التاريخ لا يخدم اطلاقا قضية النهضة بقدر ما يرجعنا دائما كي ننظر الى الوراء وننشغل بجزئيات تاريخية وصراعات عفا عليها الزمن بدل ان تتجه ابصارنا باتجاه المستقبل وايجاد

---

[٢] المصدر نفسه ، ص١٦٤ .

حلول لمأزق التقدم والنهضة ، وان ننشغل بحل كوارثنا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية الرابضة على صدورنا التي غدت مكابح تمنع ركبنا من ان ينطلق لحاقا بركب الحضارة والتطور والمجتمع المدني الحديث . وان دعاة اعادة قراءة التاريخ وكتابته هم في حقيقتهم ــ سلفيون من وجه اخر ــ سواء كانت هذه السلفية اسلامية ام ماركسية ام عقلانية . فيما يرون ان الحل يتمثل في ممارسة قطيعة مع هذا التاريخ حتى لا نكون معنيين بحمل ركامة على كواهلنا المثقلة اصلا بأزمات الحاضر في طريقنا الطويل نحو النهضة الحلم[٨] ؟

ولكن يبقى السؤال المحوري هنا :- هل نحن بحاجة الى قراءة جديدة وكتابة جديدة للتاريخ ؟ وهل الطريق الى نهضتنا الحضارية يمر لزاما عبر تاريخ جديد ؟

نعم . نحن بحاجة الى اعادة قراءة التاريخ وكتابته من جديد ، وذلك للمساهمة في اعادة بناء الرؤية العربية و الاسلامية المتسامحة والمعتدلة والخروج من اسر القرارت الخاطئة للاحداث التاريخية التي ساهمت في تضليل الرؤية الفكرية العربية اليوم .

فمن المعروف ان الوعي بالتاريخ يشكل مقوما اساسيا من مقومات التنوير لأي مجتمع من حيث كون التاريخ نموذجا تأويليا لحركات المجتمعات والبشر ، وقضاءا قيميا ، وأفقا رحبا لفاعلية الانسان المسيطر على مصيره والمجتمع بإرادة حرة . ولذا لم يكن من المستغرب ان يشكل

---

[٨] المصدر نفسه ، ص١٦٥ .

الهم التاريخي بعدا ثانيا من ابعاد الفكر النهضوي الحضاري العربي بتجلياته وتنويعاته المختلفة التي يمكن ان تصنف وتقوم بحسب قراءتها وتصورها للتاريخ . ويمكن القول بأختصار ان الفكر العربي المعاصر قد تضمن في الغالب ثلاث مقاربات للتاريخ :-

١. التاريخ / المرجع الذي اتخذ شكل الموروث الثقافي .
٢. التاريخ / الهوية ، أي التاريخ ماضيا ومصيرا كمقوم ومرتكز للهوية العربية وللمشروع القومي .
٣. التاريخ / الافق بالمفهوم النضالي الليبرالي واليساري[٩] .

ان التوجه النقدي الذي بدأ يسلكه الفكر العربي منذ مطلع الثمانينيات من القرن الماضي استند الى التصورات الجديدة للتاريخ ، كما برزت في الفلسفات والعلوم الانسانية الراهنة ، وقد تمحورت هذه التصورات حول فكرتين اساسيتين :-

١. نقد واشكلة العلاقات العضوية بين التاريخ والهوية بادخال مفاهيم الاختلاف والتنوع والقطيعة .
٢. اعادة قراءة الموروث الثقافي من خلال اليات التأويل والمباحث اللسانية الجديدة التي افرزت مفهوما جديدا للنص .

بيد ان هذه الاعمال وان اتخذت في الغالب سمة البحث العلمي المتخصص او النزوع النقدي الموضوعي ، الا انها لم تسلم في الغالب من

---

[٩] سيد ولد اباه ــ مآزق المشاريع البحثية الحديثة لقراءة التاريخ ، بحث منشور ضمن كتاب نواف القديمي ، الاسلاميون ، مصدر سبق ذكره ، ص١٦٨ .

المسبقات والخلفيات التعبوية النضالية التي غدت تتخذ من النص من حيث هو ــ الرأسمال الرمزي الرابح ــ ارضية تواصل مفقود مع فضاء مجتمعي عصي على ادوات التحليل الاجتماعي والسياسي المألوفة .

فثمة صراع بين التيارات الفكرية للاستحواذ على التاريخ . فاليساري حاول اسقاط رؤيته المادية على التاريخ ، والعقلاني ضَخَّمَ الجانب البرهاني الفلسفي ، والسلفي صبغ التاريخ حسب رؤية اهل الحديث المتأخرين ، ومؤلفو كتب اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي والحديث قدموا صورة مثالية حالمة لتاريخنا[١٠] .

نحن اذن امام تيارات واتجاهات مختلفة لتاريخنا اخذت من زوايا متعددة وساهمت في ترسيخ احادية الرؤية في الفكر العربي المعاصر، والحق ان تاريخنا هو ذلك كله ، فهو تاريخ حضارة فيها التُقى والمجون ، والعدل والظلم ، والحرية والكبت ، والضعف والقوة ... فكل هذا تاريخنا ، وهو بحاجة الى قراءة جديدة واعية تتميز بروح نقدية جريئة تكشف عن المفاصل التاريخية التي ساهمت في تكوين العقل الجمعي الثقافي للامة العربية اليوم .

نحتاج الى قراءة جديدة متكاملة شاملة تتناول الجوانب الايجابية في تاريخنا ، كسيادة مفهوم الامة واستقلالية العلماء والابداع العلمي في مجالات المعرفة ، وحرية الاجتهاد في العصر المتقدم منه ، وقبول الخلاف

---

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ و ١٦٧ .

وبعض صور التسامح التي غابت تماما من افق التنظير العربي الاسلامي اليوم .

وفي المقابل ايضا ، تتناول هذه القراءة الجديدة والكتابة الجديدة دراسة ما في التاريخ من جوانب سلبية ، كالاستبداد ، وسوء توزيع ثروة الامة ، وتهميش الفرد ، وادبيات التعامل مع السلطة ، والتعصب ، والصراع بين الفرق والطوائف ، والممارسات العنصرية مع غير العرب ، وممارسات الفقهاء البشرية ، كالتأصيل للاستبداد ، والصراعات الشرسة بينهم ، للاستحواذ على المدارس والمناصب ...

كل هذه الاحداث التاريخية والصراعات المذهبية، والرؤى الفكرية عبر هذا التاريخ الضخم، وهذا التراث الممتد عبر قرون طويلة ... كل ذلك مازال حاضرا بقوة ويشكل حجر الاساس في الرؤية الفكرية للفرد العربي اليوم. ولهذا فمن الاستحالة ان يكون للعرب مواكبة نهضوية حضارية من دون العبور من بوابة التاريخ. فالفرد العربي مازال يسكن في التاريخ، فان رؤيته تجاه الوقائع والاحداث والاشخاص تستمد محدداتها من المعرفة التراثية التي تكونت عبر هذا التاريخ. فالعرب اليوم بكل توجهاتهم الفكرية مازالوا مسكونين بالتاريخ وحوادث التاريخ، ومازالت التنظيرات الفكرية التي تستند الى حوادث تاريخية تشكل الخارطة الرئيسة لتفكيرهم . ومن الاستحالة تجاوز هذا المكون الرئيس والغاؤه في أي رؤية نهضوية حضارية ... وهذا ما اكتشفه المثقفون العرب من غير الاسلاميين ، فبعد إخفاق مشاريع فكرية كثيرة طرحت لاحداث قطيعة مع التراث والتاريخ بدأوا في السبعينيات اعادة قراءة التراث والبحث عما يوافق توجهاتهم بما

يمكن ان نسميه تسويق توجهاتهم الفكرية من خلال التراث والتاريخ ، ولم تقتصر تلك العودة الى التراث والتاريخ على تيار بعينه بل رأينا ما يشبه العصاب الجماعي للتحول الى قراءة التراث[١١] .

تقاطع الرؤى.. وانتقاء المنهج

أقسى ما يتهم به المؤرخون الداعون إلى كتابة تاريخ الأمة العربية على وفق رؤية قومية واحدة ، هو إنهم يختارون في كتاباتهم من الوقائع والدلالات ما يتفق ورؤيتهم ويبرزها ، ويسقطون ما عداها ، فكتاباتهم تأتي على وفق فكرة مسبقة للدراسة لا نتيجة لها ، وهي لهذا غير موضوعية في محتواها وأهدافها ، واتهام كهذا ــ على الرغم من قسوته ــ ليس بعيدا عما يبرره تماما إذا ما كان المقصود بالاتهام مئات من الكتب التي ظهرت خلال العقود الأخيرة ، وحاول معظمها أن يبرز افكارا أساسية بذاتها عن طريق اسقاط كل ما يتعارض مع تلك الأفكار من وقائع ونزعات وميول واتجاهات ودوافع برزت في حقب مختلفة فتركت آثارها على جوانب من الشخصية العربية المعاصرة ، في حين حاول بعضهم تبسيط تواريخ الأقطار العربية وتسطيحها فيما بدا لاصحابها إنها محاولة لإظهارها كتاريخ واحد ، فأغفلوا دراسة كثير من التفاصيل بحسبانها تؤثر على شمولية الحركة العامة ، وتجاهلوا العديد من النزعات والحركات السياسية والفكرية والاجتماعية مما بدت عليه من تقاطع مع الرؤية القومية ، وقللوا

---

[١١] سليمان الضحيان ــ اعادة قراءة التاريخ .. والخروج من اسر القراءات المنحازة ، بحث منشور ضمن كتاب نواف القديمي، الاسلاميون .... ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٧ .

من أهمية دوافع قطرية أو انعزالية هنا وهناك، على الرغم من ظهور آثارها على مجريات تاريخ الأمة احيانا ، بل إنهم اسقطوا حقبا بذاتها لمجرد ان هذه الحقبة لا تمثل مراحل توحد الأمة أو لأنها لا تحفل بما ينبغي اختياره لإبرازه . وهكذا فان مناهج كهذه في عرض التاريخ القومي هي المسؤولة عما يتعرض اليه هذا التاريخ من نقد ، بصرف النظر عما يستبطنه هذا النقد من موضوعية أو ما يستهدفه من أغراض سياسية معينة .

وبما إن الإغفال ، والتجاهل ، وإسقاط أحداث وحقب ، واختيار غيرها ، مما لا يستقيم والمناهج العلمية على اختلافها ، فان تلك الكتب ومناهجها تبقى هدفا سهلا للتجريح وتوجيه السهام لتنفذ منها إلى الفكر القومي نفسه ، فتكون بذلك افدح ضررا واشد خطرا وأعظم شررا.

وإذا كان ما يميز المؤرخ القومي المعاصر هو شمولية نظرته لتاريخ الأمة كلها ، فان هذه الشمولية لا تعني (الإطار) بقدر ما تعني (المحتوى) نفسه ، وليس معنى ان يكون المؤرخ قوميا في نظرته للماضي ، أن تكون نظرته هذه أفقية حسب ، تشمل المنطقة العربية لكنها تعجز عن استيعاب حركة الأمة بتفاصيلها العديدة وتفاعلاتها المتداخلة ، فإنها إن كانت كذلك ، حكم على عمل صاحبها بالسطحية والتبسيط ، ولم يعد هذا العمل ، بحثا كان أم كتابا ، بقادر على إقناع قارئه على أية حال .

إن الشمولية هنا تعني دراسة التاريخ العربي بكل مراحله وحقبه ، وما تقدم منها وما تخلف وبكل تفاصيله وزواياه ، ما أضاء منها وما ظلم ، وبجميع نزعاته واتجاهاته ، سواء ما اتفق منها مع رؤيانا القومية أم لم

يتفق ، فلا يتجاهل مؤرخ قومي دوافع انعزال هنا ، وتمحور هنـــاك ، ولا يسقط في بحثه عوامل تكون نزعة قطرية في هذا الجـــزء من الوطـــن العربي ، وبواعث انعزال هذه الطائفة ، وانفصال تلك النحلة ، فان ذلـــك كله داخل في صميم عمله ، بل هو مهمته الأولى وأساس بحثه .

إن أولى مهام المؤرخ القومي هنا هي أن يـــسبـــر ماضـــي أمتـــه ، ويحلله ، وصولا إلى تحديد تلك اللحظات التي تكون فيها كل ما من شـــأنه أن يضعف حركتها الطبيعية الواحدة مـــن نزعـــات اقليميـــة ، وظـــواهر طائفية ، ودوافع انعزالية ، كان لها أثرها الضار ، بل المدمر فـــي خلـــق ردود أفعال غير طبيعية تجاه أطراف عربية أخرى وإضعاف ردود أفعالها الطبيعية إزاء ما يكتنف الوطن العربي من أخطار وتحديات .

إن ادراكا سليما للدوافع المتسببة في تكوين ظاهرة ما ، من شأنه ان يزيل عنها ما أضفت الحقب عليها من سمات مطلقة ــ تعاليم ، مفـــاهيم ، طقوس ، سياســـات ، ومواقف تقليدية ــ لتتضح على حقيقتها ، مجرد عقد نفسيه ومركبات نقص ضارة لا غير .

مهمة المؤرخ العربي / القومي إذن ، أن يعمد على كل مـــا يشـــوب الوطن العربي أو المجتمع الواحد ، من إشكالات سلبية خلفتهـــا السنون ، فيحللها إلى عناصرها الأولى ليكشف عن تهافتها ، لا أن يتجاهلها ليتـــرك مهمة دراستها إلى من يؤمن بها حقيقة باقية غير قابلة للتحليل والـــزوال . ومعنى هذا ان عليه قبل غيره ، تقع مسؤولية التصدي لدراسة ما يتقاطـــع مع فكره ، وللبحث فيما لا يتفق مع رؤياه ، لأنه إن ترك هذه المسؤوليـــة لمن يجد انتماءه في تلك الكيانات الاقليمية والطائفية والانعزاليـــة ، فـــان

ما سيكتب يكون تثبيتا لتلك الكيانات وتخليدا لما تمثله من نزعات وطروحات ، ويكون هو كمن سلم سلاحه لعدوه ليستعمله ضده . وهو ان لم يتصد لها بفكره الشمولي المستوعب لحركة الأمة العربية كلها ، فان هذه الاتجاهات ستبقى تمثل اشكالات مرعبة أو غريبة في الأقل تهدد وحدة الأمة ومستقبلها ، لكنه إن اخضعها إلى عملية التحليل والفحص ، كشف عن كونها ليست إلا اشباحا أو خيالات ظل ، سرعان ما تتلاشى عند تسليط حزمة من الضوء عليها .

على هذا المؤرخ إذن ، أن لا ينسحب من ساحة الصراع أو أن يخليها لمجرد بروز خصم مناقض له ولحركته ، وإنما أن يبادر هو إليه متسلحا بشمولية تفكيره واتساع افقه ، وانفتاحه على مجمل مراحل تطور الأمة ، فيحلل نقاط التناقض ويكشف بواعثها ويرفعها من طريقه ، فيكسب بذلك من الحصانة الفكرية ، والموضوعية العلمية ، ما يجعله قادرا على مواجهة واقعه المعاصر نفسه .

ـ فما هو المنهج الذي ينبغي له ان يتبعه في دراسة تلك التواريخ وتحليلها ؟

انه بالتأكيد غير المنهج الذي ينتهجه من يجد انتماؤه في تلك الحركات والنزعات والذي أنتج عددا من الكتب الباحثة في تواريخ بعض الكيانات القطرية الضيقة ، ولكن ما هي سمات منهجه البديل ، وما هي خصائصه التي تميزه عن غيره ؟ وبكلمة أخرى ، كيف يتأتى لمؤرخ يؤمن بوحدة حركة الأمة وشموليتها أن يؤرخ كيانا يتقاطع انعزاله مع فكره ورؤياه ؟

إن المناهج السائدة حتى اليوم في دراسة تاريخ طائفة ما ، مثلا ، هي التي تضعها بوصفها طائفة ضمن إطار الحياة الدينية ، فتبدأ بعرض أفكارها ، وما تتميز به عن غيرها من عقائد ، وتترجم لدعاتها الأوائل وما خلفوه من أفكار مدونة أو غير مدونة ، ثم تنتقل إلى الحديث عن مواقفها وصلاتها بغيرها من الطوائف ، ثم بمرتكزاتها الاجتماعية ، وربما خمنت ذلك كله بلمحة عن علاقاتها السياسية المعاصرة . ولا نظن إن كتابا أرخ لطائفة ما حتى الآن سواء كان مؤلفه من اتباعها أم من منتقديها قد غادر هذا المنهج إلى غيره ، وان اختلفت التفاصيل ، كتحديد بدايات تكون الأفكار الأولى ومناقشتها تأييدا أو تفنيدا ، وطبيعة صلاتها في مرحلة من المراحل ، ومواقفها من هذا الكيان أو ذاك ، وما إلى ذلك من تفاصيل لا تؤثر في جوهر المنهج بشيء يذكر وإنما تعززه بما ترتب من معلومات في ضوئه .

ومنبع الخطر في إتباع منهج كهذا ، يكمن في أولى مقدماته :- لأنه بتصنيفه تلك الطائفة على أساس إنها كيان عقائدي اولا ، يكون قد منحها بعدا مطلقا متجاوزا لزمانه ومكانه فلا تأتي دراسته للجوانب الأخرى منها إلا لتعزيز مطلقية ذلك الكيان ، ولا تكون دراسة مواقفه وطقوسه ورموزه ، مهما تباين موقف المؤرخ منها ، إلا تأكيدا على تميزه وتفرده ، وتبريرا لانعزال اتباعه عن أبناء المجتمع الواحد ، والأمة الواحدة .

ولا شك في إن نتائج سلبية كهذه ، هي التي دعت اغلب المؤرخين الذين يؤمنون بوحدة حركة الأمة كلها ، إلى تجاهل دراسة تلك الكيانات وإسقاطها من حسابهم بدل ان يتجهوا الى اكتشاف منهج علمي جديد

لدراستها ، تعزز نتائجه رؤيتهم القومية وتغذيها .

وبما ان الفكر القومي بشمولية استيعابه لحركة الأمة الواحدة يتقاطع بصفة حتمية مع فكر تلك الكيانات الطائفية المنعزلة والمتقوقعة وراء ما خلفته الحقب من مظاهر وممارسات ، وان من المستحيل إيجاد صيغة توفيقية حقيقية بين الوحدة والتمرد عليها ، فان ذلك يحتم على المؤرخ القومي المعاصر أن لا يلجأ إلى المنهج السائد في دراسة تاريخ تلك الكيانات ، لأنه لن يخرج بنتائج تختلف في محتواها عن النتائج السلبية السابقة .

إن جوهر الخطر في ذلك المنهج يكمن في خطئه ، لأنه منهج مقلوب يقف على رأسه لا على قدميه ، فهو يفترض إن أساس الكيان عقيدة ، ثم يبدأ من بعد ذلك بالبحث في أوجهها ومجالات تأثيرها ومراحلها انتهاءا ببعض جوانبها السياسية المعاصرة . وافتراض كهذا من شأنه أن يجعل من أية عقدة نفسية كونتها ظروف سياسية متغيرة في لحظة تاريخية من الزمن ، عقيدة مطلقة ، ثابتة الدعائم ، مبررة الأسس ، ومن ثم فان تفسير استغلاقها وانعزالها عن مجمل حركة الأمة يبدو منطقيا أو مقبولا في الأقل[١٢] .

والمؤرخ القومي مطالب بان يعدل وضع هذا المنهج بان يضعه على قدميه لا على رأسه، فلا يقيم فروضا بمطلقية تلك العقائد ، لا لأنها تتقاطع

---

[١٢] عماد عبد السلام رؤوف – الدور المطلوب للمؤرخ القومي ، مجلة الطليعة العربية (باريس) ، العدد ٤٨ (٩/نيسان/ ١٩٨٤) .

مع رؤيته القومية حسب وإنما لتناقضها مع المنهجية العلمية ، وإنما عليه أن يبدأ اولا بدراسة المكان الذي تكونت فيه النزعات الأولى الداعية للتميز عن المجرى العام لحركة الأمة ، دراسة جيوبوليتيكية ، عميقة ، ليكشف عن مدى مسؤولية ذلك المكان ، بيئته وموقعه وعلاقاته ، عن تكوين تيارات سياسية / اجتماعية لها استعداد للتمحور حول نفسها ، ثم يدرس على وفق السياق الأمني ، الصيغة التي توقفت تلك التيارات عندها عن التفاعل الحي مع الحركة العامة حولها ، وتحديد لحظة ذلك التوقف ، وملامح الانغلاق الأولى ، والمراحل الزمنية التي تعاقبت عليها والتي أدت إلى تثبيته وتحجره ، والعوامل الداخلية والخارجية التي كرست وضعه الشاذ بمنحه ما يحتاج إليه من سمات روحية باقية ، وخصائص ثقافية محددة، ثم إعطائه الغلاف العقائدي الذي هو المرحلة الأخيرة من مراحل التكوين ، ونتيجته ، لا سببه .

إن الإمكانات السياسية التي تتيحها بيئة جغرافية ما ، أمر من الضروري دراسته لتحليل مواقف أي كيان قام في تلك البيئة ، سواء كان طائفيا أم سياسيا أم فكريا ، بل ربما كشفت دراسة عن أسباب تشابه ردود أفعال ذلك الكيان القائم في عصر ما ردود أفعال كيان آخر ، في عصر غيره ، لا يجمعه معه شيء سوى انه قام على أرضه ، أي ضمن نفس الظروف التي أدت إلى تمحوره ، ثم إلى انعزاله ، فإذا ما حللت الظواهر وتم تحديد الظروف والدوافع وميز بدقة بين الأسباب الحقيقية لاتخاذ موقف ما ، والغطاء العقائدي المتخذ لتخليد ذلك الموقف ، تبين بجلاء إن وراء الميول والاتجاهات والطروحات التي تعارض وحدة الأمة العربية وتهددها

للخطر ، عقد نفسية ، سببتها ظروف محددة ، ودوافع مختلفة ، وان مجرد إبراز تلك العقد بهذه الصفة وتجريدها مما أضفي عليها من مبررات عقب الحقب المتعاقبة ، كفيل بان يزيل عنها تأثيرها المضاد ويفقدها إمكانية تعويق حركة الأمة الواحدة في هذا العصر[٣٠] .

غائيات ضيقة

تفشت في الآونة الاخيرة ظاهرة سلبية في كتابة بعض مراحل تاريخنا الحديث من قبل ذوات شغلوا في وقت ما مواقع مسؤولة في حكومات اقطارهم سواء في العهود الملكية أو الجمهورية . ظاهرة تمجد الذات وتشيد بها مقابل الهجوم على المراحل التاريخية التي سبقتها والتي عاصرتها ، وأحيانا تلك التي أعقبت زمانها، كمؤرخين أو شهود عيان . هذه الظاهرة الخطرة تحتاج إلى تفسير وتحليل وتحتاج أكثر من ذلك إلى موقف حاسم ، موقف يرفض عن وعي وإصرار إخضاع تاريخ اقطارهم لحسابات شخصية أو مغالطات تخدم مصالح غريبة عنها وعن تاريخها .

إن غياب المنهج الموضوعي في كتابات هؤلاء يحول التاريخ إلى ميدان تمارس فيه الأفكار المختلفة حريتها في التزييف بلا رقيب وبلا رادع علمي أو أخلاقي أو سياسي .

---

[٣٠] المصدر نفسه ، مجلة الطليعة العربية (باريس) ، العدد ٤٩ (١٦/نيسان/١٩٨٤) .

إن الأهواء الذاتية هي التي تتحكم في كتابات هذا النفر ، وهذه مأساة حقيقية لأنها تحجب عن الحاضر رؤية جذوره والتعامل مع ماضيه بشكل موضوعي يلقي الضوء على الحاضر من أجل فهمه وفك ألغازه وقراءة عناصر المستقبل التي تتشكل في رحمه .

إن صفحات التاريخ هي بشكل أو بآخر تملك مفردات معجم الحاضر اليومي وداخل سطورها وأحداثها ترقد أجنة المستقبل .

التراكمات الذاتية الضيقة والحزبية والأنانية تزيف هذه الصفحات وتغير معالمها ، تقدم لنا تاريخا غير واضح المعالم ، ترسم لنا صورة لأشخاصه لاتطابق واقعهم أو دورهم من قريب أو بعيد . هذا الارتباك مع صفحات التاريخ يفرز لنا تاريخا ليس له علاقة بالحقيقة هو رؤى ذاتية خالصة لا يمكن اعتمادها باعتبارها مصادر حقيقية للأحداث التاريخية أو الشخصيات المؤثرة التي شكلت وقائعه .

ودائما ، عندما يقرأ المرء إنتاج هذه الذاتيات غير الموضوعية سيسأل :- أين الحقيقة في هذا الركام المصاغ بطريقة هدفها إثبات عقيدة سياسية ما أو الترويج لفكرة عقائدية معينة أو إثبات دور مزيف لا وجود له بين مفاصل الإحداث ؟

إن التاريخ له منهجه للوصول إلى الحقيقة مثل أي علم آخر . وحقيقة التاريخ تتركز حول جهود الإنسان في كل مجتمع لمنجزاته وأخطائه ، أي إنه علم يحاول الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بفترة من

حياة الشعوب لها أمجادها وخطاياها ، فكيف نسمح بترك تاريخنا في أيدي كتاب أو كتابات تفتقر إلى أبسط مبادئ المنهج العلمي لدراسة تاريخنا الوطني ؟

وإذا كان موضوع التاريخ هو الكشف عن حقائق فترة ماضية من تاريخ أي مجتمع والبحث عن جهد إنسان هذه الفترة ، فكيف نسمح لكل من أصيب بأضرار شخصية في فترة من تاريخ بلده كان هو قريب منها ... أو من يريد أن يركب الموجة أو يبحث عن مكانا على خشبة المسرح أن يكتب ويحاكم ويحكم على هذه الفترة أو تلك بلا وازع من ضمير أو قانون يرغمه على التريث ويمنعه عن تحويل أحقاده أو أهدافه الانتهازية إلى قنابل مدمرة تصيب مجتمعه بأضرار خطيرة ؟

إن الوصول إلى حقيقة موقف واحد لفترة زمنية محددة يحتاج إلى جهد وبحث ومعاناة ، فكيف تصل الجرأة عند بعضهم إلى حد الحكم على عشرات المواقف لفترة زمنية أو لشخص صانع حدث بعينه بلا دراسة أو فحص أحيانا وبتشويه وتزييف الحقائق ونشرها في صحف واسعة الانتشار أو في كتب أنيقة الطبع ؟

إن كتابات هؤلاء ولاسيما ما يتعلق منها برموزنا الوطنية تسلب من تاريخهم أشياء جوهرية لا تلمس دورها الحقيقي في صياغة تاريخ وطني مشرف ولاتحاول نقل صورة موضوعية عن كفاحهم وأفكارهم السياسية وإنما هدفها منذ سطورها الأولى الهجوم والتشهير من أجل هدف سياسي

محدد هو إطلاق الرصاص على جماعة سياسية دخل معها المؤلف في اختلاف سياسي وفكري ومصلحي ، لذلك عندما يكتب عن هذا الشخص أو تلك الحركة ، كان الهدف تصفية حساب سياسي مع هذه الحركة أو الحزب متمثلة في شخص قادتها وتأريخهم وحياتهم .

هذه الطريقة ليس لها علاقة بالكتابة التاريخية ، إنها تدخل ضمن المناورات السياسية ، لذلك من المعيب والخطأ الشديد إطلاق صفة كتابة تاريخية على هذا الشكل ، من الأفضل وصفه باسمه الحقيقي باعتباره محاولة لهدم تاريخ شخص وطني أو حزب سياسي ونسف أساسه الفكري وطروحاته التاريخية . لذلك فانّ من أي منصف يريد الاقتراب من تاريخ أي مرحلة مر بها بلده لا يهتم لكتابات هذا النفر لأنها منحازة وليست موضوعية ، ولم يكن هدفها إجلاء الحقيقة أو الاقتراب منها . كذلك من الخطأ الفادح إدراج هذا النوع من الكتابات غير المسؤولة ضمن قضية حرية الرأي ، فالحرية لها شروط وقواعد وآداب ، وأهم شروطها التحرر من الأحقاد والأهواء ، ولاسيما إذا ارتبط الموضوع بتاريخ فترة زمنية زاخرة بالأحداث والمتغيرات من تاريخ عراقنا . والحرية تشترط أو تفترض الالتزام بقاعدة حق الآخرين بالرد وبحيث لايتهم من يتصدى لحملة شعواء على تاريخ وطنه بأقصى ألوان الاتهامات . كما تفترض حرية الرأي الالتزام بآداب الحوار الموضوعي الهادئ فلاتنحدر أساليب الحوار إلى حضيض الشتائم باسم حرية الرأي ولا يعقل أن يصبح اتهام

إنسان بالخيانة والعمالة وبيع قلمه مقابل دولارات ، أسلوبا مشروعا لآداب الحوار الحر بين المختلفين .

غياب التيار الموضوعي عن التاريخ مأساة لا يضاهيها إلا غياب نفس التيار عن الواقع الراهن وأتصور أنه في ظل نمو مؤسسات علمية تحاول نقل الواقع نحو استكمال كياناته وشخصيته ، فإن هذا التيار سينمو وسيفرض نفسه ليس على التاريخ فحسب وإنما على صيغة الواقع الراهن .

إننا نحتاج الى نمو تيار الموضوعية في حياتنا العلمية ، وهذه الحاجة تبرز كلما نظرنا إلى تاريخنا الوطني التي تقدمه إلينا كتابات بعضهم المنحازة التي تصر على تقديمه إلينا كما تشاء ، وكما تهوى ، وهي تهدف من هذه الصورة الذاتية للتاريخ التحكم في الواقع حتى تصيغه على الطريقة التي صنعت من خلالها أحداث التاريخ .

إن الموضوعية مطلوبة ليس لقراءة التاريخ وإنما لفهم حياتنا المتشابكة والمعقدة التي يصر كل فريق أن يرسمها بألوانه الخاصة التي ليست لها علاقة بالحقيقة ولا بالتاريخ .

وماذا بعد ؟

كيف نقرأ التاريخ ؟ كيف نكتبه ؟ ومن يكتبه ؟ واي تاريخ نكتب ؟

يقول بعضهم إن التاريخ يجب ان يكتبه المؤرخ فقط ، في حين يقول بعضهم الاخر ان ذلك غير ممكن وانه لابد للعلوم الاجتماعية الاخرى ان يكون لها دور ، ويقول بعضهم ان ما يجب ان نكتبه هو التاريخ القومي ، ويقول غيرهم انه يجب البدء باعادة كتابة التاريخ القطري ، فهل هناك حل

لمعادلة اما .... او ؟ هل هناك امكانية للجمع بين هذا وذاك ؟ ربما يستدعي ذلك بعض الملاحظات والاشارات التي تزيد من المسألة تعقيدا ووضوحا. لقد كتب الغربيون تاريخهم وكتبوا ايضا تاريخ بلادنا ، ولكن نحن ايضا كتبنا تاريخ بلادنا . فهل عندما كتبناه حاولنا اظهار ما يمكن ان نسميه خصوصية الحركة التاريخية ؟ ام اننا كتبنا التاريخ بالتقسيم الذي وضعه الغرب او رأى به الغرب تاريخه ؟ فكتبنا تاريخ الملوك والاسر الحاكمة ، او قسمنا مراحل تطور مجتمعاتنا الى مشاعية وعبودية واقطاع ورأسمالية واشتراكية من دون ان نكلف انفسنا عناء اختبار هذا التقسيم وصحته ؟

وحينما كتب هذا التاريخ (الفوقي) هل تمت دراسة ما هو اجتماعي واقتصادي وثقافي في المجتمع ام ان التاريخ لا يكتبه الا المؤرخ . وعلى الاقتصادي والعالم الاجتماعي ان يتواريا خلف المنحنيات والارقام وحالات المعونة الاجتماعية للفقراء والمشاكل الاسرية ؟ الا يوجد هنا بتر للكل الاجتماعي / الاقتصادي / السياسي / الاجتماعي الذي يشكل المجتمع الانساني ؟ اذن ، ما التاريخ ؟ هل هو دراسة الحوادث والحروب وتوالي الاسر الحاكمة على العروش ؟ ام انه تاريخ الانسان بكل ما يتضمنه معنى الانسان من كلية :- الانسان المفكر ، الانسان المنتج ... الذي يدخل في علاقات متعددة مع غيره من الاشخاص اعضاء المجتمع ، سواء كانت علاقة مُستغَل بمُستغل او العكس او علاقة مواطن مع السلطة ؟

كيف نفسر ظهور الوعي الوطني او القومي او الوعي الديني او غير ذلك، هل هي ظواهر معلقة في الهواء ام ان لها تفسيرات اقتصادية

واجتماعية وثقافية ولها ايضا علاقة بالعالم الخارجي ؟ هل يمكن تفسير أي من هذه الظواهر من قبل المؤرخ من دون أن يتسلح بفهم كلي لما يحدث على كل صعيد في المجتمع وعلاقته بالخارج ؟

ان التاريخ هو العملية التي تتم بلا توقف داخل المجتمع ، تتفاعل فيها العوامل الداخلية مع العوامل الخارجية ، ويكون تأثير الخارج في الداخل رهنا بدرجة التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي لهذا الداخل وما ارتسمه كاستراتيجية لحركته التاريخية المستقبلية ، اذا تم التوافق على ان التاريخ يصنع الانسان ... ولكن الانسان بامكانه ان يصنع التاريخ ايضا .

ذلك يعني ان التاريخ لا يمكن ان يفهمه المؤرخ وحده ، فالدولة / السلطة تعني الاستحواذ على الفائض الاقتصادي من المنتجين المباشرين ، وتعني الضرائب وتعبئة الجيوش وشن الحروب والسيطرة على الانسان داخل المجتمع بقوة الاقتصاد والشرطة والسياسة ومساندة بعضهم ضد الاخر ، والتحكم في الاعلام والنشر أي في العقيدة والوعي الوطني او القومي ليس وحيا منزلا على بعض الافراد ولكنه تعبير او ترجمة لواقع اجتماعي / سياسي / ثقافي معقد يرتبط بفهم ووعي طبيعة ما يزيده المجتمع او جزء من افراده في مواجهة تحديات داخلية وخارجية محددة .

ان من بين ما يظهر استحالة الفهم التاريخي المجرد لمجموعة من التغيرات ... هي عدم اخذ الظاهرة في كليتها وشمولها ... بل يمكن القول من دون ان نخطئ كثيرا انه حتى عندما نعيد كتابة التاريخ القطري كحلقة اولى من اعادة قراءة التاريخ القومي وكتابته ، فاننا بالضرورة من خلال

هذه النظرة الكلية ولو جزئيا بعض من التاريخ القومي . فالتاريخ القطري ملتحم بتاريخ الاقطار الاخرى ، في الاقل بما يمكـن ان نسميه التـاريخ (المناطقي) او (تاريخ المنطقة) .

فلما لا يكون هذا المنهج الشمولي الذي يدقق فيما يحدث بالداخل فـي علاقته بالخارج هو الاسلوب الذي نكتب به تاريخنا ؟ اذ به وحده تبتعد عن الاذهان فكرة ان هناك قالب عقائدي قومي يريد ان يجبر حركة التـاريخ على ان تتقلص او ان تتمدد على وفق السياق العقائدي وتدخلاته... فالهدف النهائي هو ان يكتب التاريخ بشكل صحيح ، بمعنى ان نرى فيـه ، مـن يستغل من ، ومن عليه قيادة حركة تاريخ الوطن العربي من اجل اخراجه من التبعية والتخلف ، من اجل تكوين وطن عربي جديد يكون فيه الانسان حراً ينتج لاشباع حاجاته الاجتماعية الاساسية ، اذ ما الغايـة مـن فهـم الماضي والحاضر ان لم نكن اكتشاف القوانين وراء حركتهمـا للـسيطرة والتحكم في المستقبل والمساهمه في صنعه . فالتاريخ ليس نزهـة عقليـة يكتب لذاته ولكنه تكثيف الوعي الانساني بخبرات السلف من البشر الـذين شاركوا في صنع مجتمعاتهم او اولئك الذين أخفقوا في انجاز هذا الـدور فاصبحوا ضحايا التاريخ .

فالتاريخ ليس انجاز سنة او عقد من الزمان ، وانما هـو تراكمـات اجيال تلو الاجيال ، والخطوات الموفقة التي تقطع ، وتـصويب الخـاطئ منها في الطريق ، يضمـن امكانية ان يبلغ المجتمـع الانـساني صـنع مصيره وتحرير الانسان من الحاجة والقهر .. ويصبح الانـسان صـانع التاريخ .. وغايته .